الرهبنه القبطية : قديمًا وحديثًا[1]

نشـأت الرهبنـة كحيـاة وحـدة وصـلاة، بعيـدة بُعـدًا كاملًا عن العـالم وعن الخدمـة وعن الكهنوت، لأشـخاص ماتوا عن العالم، وما عادوا يرجعون إليه...

ولم يكتف الآبـاء الأُ ول بالحياة في الأديرة، بل خرجوا منها إلى الجبال والبراري تائهين فيها. ووصل بعض منهم إلى درجـة السواح الـذين كان كل منهم يعيش عشرات السنوات لا يرى فيها وجه إنسان. وحاليًا زحف العالم على الأديرة، وقرب الاتصال بالمدن والقرى.

صارت المواصلات سهلة من المدينة إلى الدير. وكثرت وسائل الاتصالات، إلى أن وصلت إلى التليفونات تتصل بها الأديرة بالمدن، بل عبر البحار والمحيطات إلى قارات أخرى. وأصبح السفر سهلًا، ليس فقط بالسيارات بل بالطائرات أيضًا. وكثر حديث الرهبان مع الزوار.

أين إذًا حياة الوحدة والعزلة؟!

وأين الموت عن العالم، الذي ربما لا يتوافر إلا لندرة ربما تعد على الأصابع؟! وأين طغمة السواح بين الرهبان؟! لقد تغير الوضع في حياة الوحدة. من الذي يحياها حاليًا؟!

وكانت الرهبنـة حياة نسك شديـد، بعيـدة تمامًا عن المال والقنية. كان فيها الراهب ينذر الفقر الاختياري. فهو لا يملك شـيئًا، لا يرث ولا يورث. وقلايته فقيرة مثله. وكـانت حيـاته كلهـا صومًا. ومع ذلـك كانت صـحته أفضل من صـحته في أيامنا. يمشـي في الجبل ولا يتعب. ويطوي الأيام ولا ينهك، ولا يشكو...

كانوا ملائكة أرضـيين أو بشـرًا سـمائيين ينبهر الناس من فضائلهم ويطلبون صلواتهم. كانوا يتدربون على الصلاة الدائمة. وكانت صلواتهم كالنفس الداخل والخارج، ولا تتوقف، ويسـهرون فيها الليل يسـبحون الله، بدون انقطاع وبدون ملل. لا ينشـغلون بشـيء آخر غير الصلاة. لذلك فضلوا الصمت، لكي يعطيهم فرصة للحديث مع الله. لذلك قيل:

الرهبنـة هي الانحلال من الكل للارتباط بالواحد، الذي هو الله... فهل نحيا الآن حياة الصلاة؟ أم توجد ارتباطات كثيرة تشغلنا عن الله!

هـل نجـد في الله كفايتنا، يملأ القلب والفكر، فلا ننشـغل بغيره؟! أم يعاتبنا الله بما سـبق أن قاله لمرثا: "أَنْتِ تَهْتَمِّينَ وَتَضْطَرِبِينَ لأَجْلِ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، وَلكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَى وَاحِدٍ" (لو10: 41 ،42). فهل كل اهتمامنا بهذا الواحد، لأنه النصيب الصالح...

هـل ظـل الهـدف الرهبـاني كمـا كان في القرن الرابع؟ وهل ظلت الوسـيلة كما هي: الوحـدة والصـلاة والنسك؟ أم تغير الهدف أم فقدناه. هل تُبكّتنا كتب الآباء وسـيرتهم؟ وما كتبه بلاديوس، وكاسـيان، وروفينوس، وبرصـنوفيوس، وإشـعياء المتوحـد؟ هل يمكن أن يعود الزمن كمـا كـان في أيـام الآبـاء؟ وهل نحن نريـد ذلك ونسـعى إليه؟! هل يمكن أن يوجـد أنطونيوس جديـد. وبولا جديـد، وواحد من الثلاثة مقارات وآبائنا القديسـين؟ وهل لو حاولنا أن ننشئ ديرًا مثل أديرة القرن الرابع أو الخامس، سنجد من يسكن فيه من الرهبان؟

إنها صـلاة نرفعها إلي الله أن يعيد إلينا ماضـينا. فنحبه ونحيا فيه. ولا تستهوينا المدينة الحاضرة، ولا تغرنا أساليبها، فننسى ما خرج الآباء من أجله، حين فضّلوا البرية وما قيل عنها: "إن مجرد نظر القفر يميت من القب الحركات العالمية".

---

1. مقال لقداسة البابا شنوده الثالث - بمجلة الكرازة - السنة الثامنة والعشرون – العددان 25، 26 (14-7-2000م)